موافقة القرآن لكل الحقائق العلمية العصرية

الكلمة التى القاها **الاستاذ محمد الفاسى** بمناسبة ذكرى مرور ثلاثين سنة على تأسيس الادارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وكازا غستان ·

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الامى الذى بعث الى العالمين ليخرج الانسانية من ظلمات الجهل الى نور العلم واليقين ·

سماحة المفتى الجليل رئيس الادارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وكازغستان ·

اصحاب الفضيلة :

ايها السادة الكرام ·

احييكم بتحية الاسلام التى تنطوى تحتها اسمى معانى الانسانية التى تتجلى فى الدعاء بالسلام والهناء واقول لكم السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبعد · فلقد استجبت بكل ارتياح لهذه الدعوة الكريمة لاشارك اخوانى مسلمى الاتحاد السوفياتى فى هذه الذكرى العزيزة وهى الاحتفال بمرور ثلاثين سنة على تأسيس هذه الادارة التى تعنى بشؤون المسلمين الدينية لاخواننا فى هذه البلاد وتسهل عليهم القيام بواجباتهم وشعائرهم وتمتن روابط الاخوة بينهم · ولقد سبق لى ان زرت هذا المركز منذ ست عشرة سنة وشاهدت ما يقوم به من نشاط وما ينجزه من اعمال بفضل المشرفين عليه وعلى راسهم فضيلة الشيخ ضياء الدين بن ايشان بابا خان حفظه الله واعانه على القيام بهذه المهمات السامية وجعله ضياء فى طريق المومنين ونبراسا يستضىء به كل المسلمين فى هذه البلاد العزيزة علينا جميعا بما انجبته من فطاحل العلماء فى كل ميادين المعرفة من علوم الشرع الى علوم اللغة والعلوم المبحتة من فلك ورياضيات وطب وغيرها مما جعل اسماء امثال البخارى والترمذى والنسائى والبيرونى وابن سيناء والسمرقندى وغيرهم ممن يطول ذكرهم اسماء لامعة فى سماء الحضارة والثقافة فى العالم كله ·

ثم اننى ابلغكم تحيات اخوانكم بالمغرب وعلى راسهم جلالة امير المومنين الحسن الثانى وهو من تعلمون ايمانا واخلاصا فى خدمة الاسلام ومبادىء السلام ونشر العلم وتقدير العلماء ·

هذا ولقد اردت ايضا ان اشارك فى هذا المنتدى العلمى الجليل بمساهمة متواضعة فى موضوع يشغل بال المفكرين المسلمين فى هذه العصور التى طفت فيها موجات التنكر للميادين الروحية السامية مما يبلبل افكار شبابنا حيث يدعى ان الاسلام والقرآن الكريم بالذات يخالفان ما يسمونه بالعلوم الحديثة · فأود ان ابين ان هذه الادعاءات باطلة لا تمت للحقيقة بسبب بل العكس هو الصحيح الواضح البين ·

وقبل ان اشرع فى بيان ذلك اود ان انوه بكتاب ظهر فى هذه الشهور الاخيرة لاحد الباحثين الفرنسيين اراد ان يمحص هذه القضية فاقبل على دراسة الكتب المنزلة التوراة والانجيل والقرآن والبحث عما فيها من قضايا علمية وعرضها على ما وصل اليه العلم فى وقتنا ليتحقق مما يوافق نتائج

العلم هذه وما يعارضها · ولم يكن يعرف العربية فلما اخذ منذ سنين طويلة ظهر له ان تراجم القرآن الكريم التى اطلع عليها لا تشفى غليله فى النفوذ الى اعماق معانى القرآن فانكب على تعلم اللغة العربية حتى اتقنها وصار يقرا القرآن الكريم مباشرة باللغة التى انزل بها وبفهمه على حقيقته · وعند ذلك استأنف عمله فى المقارنة فوصل الى نتيجة اعلنها فى الكتاب المشار اليه وهى انه لا يوجد فى الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم منذ اربعة عشر قرنا مسألة واحدة تخالف الحقائق العلمية الثابتة فى حين ان التوراة والانجيل يحتويان على مثل ذلك · ونحن نقول بين قوسين ان هذا يؤيد ما نذهب اليه من أن التوراة والانجيل وقع فيهما تحريف وتبديل والا لكانا ايضا خاليين مما يخالف العلم لانهما فى اصلهما منزلان على رسولين كريمين عليهما وعلى نبينا افضل الصلوات والسلام ·

ثم تخلص من كل هذا الى التصريح بأن القرآن الكريم يستحيل أن يصدر عن بشر لما فيه من حقائق علمية لم يكشف عنها الحجاب الا فى زماننا · وهذا العالم الباحث اسمه بوكاني وعسى ان اوفق الى ترجمته للعربية حتى يعم نفعه جميع المسلمين ·

وبعد هذه التوطئة اقول : ان اول ما نزل من القرآن الكريم على النبى العربى الامين قوله تعالى فى محكم كتابه المبين : « اقرا باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » ·

هذه الآيات الكريمة هى ابتداء انطلاقة ثورية لم يعهد لها التاريخ مثيلا قلبت وجه العالم وتحكمت فى مصير الانسانية كلها واخرجت اكثر شعوب الارض من ظلام الجهل وظلم المتحكمين فى بيئة صحراوية امية لا تكتب ولا تحسب ولا عهد لها بالحضارة والتقدم فى ميادين العلم والصناعة ، فما السر فى نجاح هذه الدعوة التى انبثقت وسط هذه الامة التى لم يكن لها من مزية تمتاز بها من بين الامم الا فصاحة لغتها وخيال شعرائها الاميين الذين كانوا ينطقون ما ينطقون به من شعر عن شجية وطبيعة لا يتعلمون ذلك فى مدرسة ولا صلة لهم بالعلوم التى كانت معروفة عند غيرهم ·

وقد يحار العقل كذلك فى السرعة التى تم بها هذا الانقلاب المفاجىء مما يتعجب منه المفكرون والكاتبون وكل الذين درسوا انبثاق هذه الدعوة الاسلامية العظيمة · وذلك ان التاريخ لم يرو لنا قبل الاسلام ولا بعده تطورا سريعا مثل الذى تم به خروج العرب من طور البداوة والامية الى طور الحضارة والعلم · فقد سبقت الحضارة الاسلامية مدنيات راقية من الصين الى جزر اليونان ولكنها تدرجت قرونا عديدة قبل ان تبلغ المستوى العالى الذى وصلت اليه وحتى المدنية التقنية التى تسيطر الآن على العالم فانها تطلبت كذلك قرونا قبل ان تصل الى الحالة التى هى عليها فى وقتنا ·

أما الدعوة الاسلامية فانها بخلاف ذلك لم يمر عليها الا نحو قرن حتى كانت بلغت درجة عليا فى طريق التقدم العلمى والحضارى · وتلك هى معجزة الاسلام وتعاليم القرآن . تلك هى معجزة اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ·

وذلك ان محاولات الحضارات السابقة فى ترقية المجتمعات البشرية كانت تسعى الى هذه الغاية بمحض الدوافع المادية من جهة وبسبب الطموح الى المعرفة الكامن فى الطبيعة البشرية من جهة اخرى وهى دوافع لا شك كافية للوصول الى نتائج مرضية ولكنها لا يمكن ان تساوى عمل الاوامر السماوية فى نفوس ملئت ايمانا وتسابقا الى امتثال ما يحث عليه بل يوجهه الله تعالى فى كتابه المنزل على صفوة انبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ·

ويجب أن نبحث اولا كيف اشربت نفوس المسلمين الاولين الايمان برسالة سيدنا محمد

صلى الله عليه وسلم · لا شك انه كان لشخصية الرسول الكريم بما هياه الله له لتحمل اعباء رسالته الدور الاساسى فى جعل من يعرفونه ويتصلون به يصدقونه فى دعوى النبوة لما كانوا يتحققون من صدقه واستقامته وطهارة اخلاقه وكل الصفات الحميدة التى كان معروفا بها فى وسطه حتى انهم كانوا يسمونه الامين وكانوا كذلك يعلمون انه لم يكن بشاعر ينظم الالفاظ بعضها الى بعض ، وكان فوق كل هذا اميا لا يكتب ولا يقرأ · فآمنوا به وآزروه وعضدوه ولكن الجماهير الاخرى التى تبعته كان لها حافزا آخر قوى للايمان برسالته وهى المبادىء التى جاء ينشرها ويناضل عنها من نصر المستضعفين وتحقيق المساواة بين البشر وتخليص الانسانية من عبادة الاوثان والاشادة بوحدانية الخالق سبحانه تحقيقا لكرامة الانسان الذى جعله الله خليفة فى الارض ولا يجمل بمن كانت هذه مكانته عند المولى تعالى ان تحجب عقله غشاوة الجهل والضلال فيسجد لاحجارة نصبها بنفسه ونسب لها القدرة والالوهية .

نقول كان لكل اثره فى الايمان بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولكن فوق كل هذا بهر هؤلاء العرب جمال ما ينطق به الرسول الكريم مما لم يكن لهم سابق عهد بمثله وهم ارباب الفصاحة وفرسان البلاغة والرسول عليه السلام يقول لهم لا عجب فى ذلك لانه ليس من عندى وانما هو كلام الله انزله على وليس لى منه الا امانة التبليغ · فيومن به من سبقت له الحسنى · هذه هى معجزة الاسلام الخالدة التى تفوق كل معجزات الانبياء السابقين عليهم صلوات الله لان تلك انقضت بانقضائهم وهذا القرآن شاهد دائم مستمر على صحة رسالة محمد بن عبد الله عليه صلوات الله·

ولما اخذ المشركون يقاومونه ويكذبونه ويطالبونه بالاتيان بالمعجزات الخارقة للعادات كان يرد عليهم بأن معجزته هى القرآن ويامره الله تعالى ان يتحداهم بالاتيان بمثله فيقول جل من قائل فى سورة البقرة : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين » ويقول فى سورة يونس : « ام يقولون افتراه قل فاتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » ويقرر سبحانه وتعالى استحالة ذلك عليهم بقوله فى سورة الاسراء : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » · صدق الله العظيم .

وهنا ينبغى ان نتعرض لمسالة طال الكلام فيها عند المفسرين وعلماء الاسلام وهى مسالة فواتح السور المبتداة ببعض حروف الهجاء مثل الم وحم .. الخ وقد اختلفت الاقوال فى معناها ولا اريد ان اورد هذه الخلافات لان فى مثل هذا المقام لا فائدة من جلب الاقوال المتباينة وانما ينبغى ان يقرر ما عليه الجمهور وما يوافق مبادىء الاسلام المبنية على العقل · واذا لم يكن هناك اجماع فيتعين الترجيح فلذلك لا ارى ان يكثر على الطلاب من ذكر الخلافات مما يجعلهم يخرجون من الدروس وقد استولت على عقولهم البلبلة والشك لان فى كل شىء اقوالا متعددة · وانما ينبغى ان يترك هذا للباحثين وللدروس التخصصية بعد ان يكون الطلاب حصلوا لب العلم فيلقنوا اذ ذاك اقوال الناس وافكارهم وكيف توصلوا الى استخراج هذه الاقوال · اما العلم الذى ينبغى ان يثبت فى النفوس فهو العلم الخالص المعفى . ولنرجع الآن الى هذه الفواتح التى لا يعرف كثير من الناس حقيقة معناها وانما يتعبدون بتلاوتها لانها وردت هكذا فى القرآن الكريم . والذى يظهر لى فى هذه الفواتح وقد لمح اليه جماعة من المفسرين هو ان لها علاقة بالاعجاز فالله تبارك وتعالى وهو يتحدى المشركين فى الاتيان بمثل هذا القرآن ان كانوا لا يومنون بأنه من عند الله وانما هو من عند محمد بن عبد الله فكانه يقول لهم : ما لكم لا تستطيعون مماثلته وانما هو كلام

مركب من حروف مثل الالف واللام والنون والصاد .. الخ ؟ والدليل على هذا التفسير هو ان كل السور التى تبتدىء بهذه الفواتح يتبعها الله تعالى باسم الكتاب والقرآن والآيات البينات الا فى سورة او سورتين كما سنبينه وفى ضمن هذا التفسير معجزات اخرى باهرة لنبينا عليه الصلاة والسلام.

وذلك ان عدد السور التى تبتدىء بهذه الفواتح تسع وعشرون بعدد حروف اللغة العربية بما فى ذلك حرف الالف الذى هو فى الحقيقة علامة فقط للمد تارة ولحمل الهمزة تارة اخرى ولكنه له رسم خاص فيعد بهذا الاعتبار من حروف اللغة العربية . وهذه فى نفسها معجزة ثم ان عدد هذه الحروف اربعة عشر وتعد نصف الحروف الهجائية باستثناء الالف الذى قدمنا انه لا صوت له وانما هو علامة . وهذا كذلك من اسرار الاعجاز وهذه الحروف هى : « الالف والحاء والراء والطاء والكاف واللام والميم والنون والصاد والعين والكاف والسين والهاء والياء » ويلاحظ ان كل هذه الحروف مهملة بما فى ذلك النون والقاف والياء التى تكتب فى رسم القرآن لما تكون مفردة بدون نقط وكذلك فى الرسم المغربى مما يدل على ان هذه الطريقة هى الطريقة المثلى وهذا ايضا من عجائب هذه الفواتح . وهانا اسرد عليكم السور التسع والعشرين التى وردت فى اوائلها هذه الحروف :

البقرة	الم ذلك الكتاب لا ريب
آل عمران	الم الله لا اله الا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق
الاعراف	المص كتاب انزل اليك
يونس	الر تلك آيات الكتاب الحكيم
هود	الر كتاب احكمت آياته
يوسف	الر تلك آيات الكتاب المبين
الرعد	الر تلك آيات الكتاب والذى انزل اليك من ربك الحق ولكن اكثر الناس لا يومنون .
ابراهيم	الر كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور
الحجر	الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين
مريم	كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكرياء
طه	طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى
الشعراء	طسم تلك آيات الكتاب المبين
النمل	طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين
القصص	طسم تلك آيات الكتاب المبين
العنكبوت	الم أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم يفتنون
الروم	الم غلبت الروم
لقمان	الم تلك آيات الكتاب الحكيم
السجدة	الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين
يس	يس والقرآن الحكيم
ص	ص . والقرآن ذى الذكر
غافر	حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم
فصلت	حم تنزيل من الرحمن الرحيم
الشورى	حم عسق كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم
الزخرف	حم والكتاب المبين انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون
الدخان	حم والكتاب المبين
الجاثية	حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم .
الاحقاف	حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم
ق	ق والقرآن المجيد
القلم	ن والقلم وما يسطرون

وانتم ترون انها كلها اتبعت بما يدل على تنزيل الكتاب المبين الا ما كان من سور ثلاث هى : مريم والعنكبوت والروم . فأما الاولى فانها وان لم يرد بعد الحروف المبتداة بها اسم القرآن والكتاب بالتصريح فان لفظ ذكر فى قوله تعالى كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكرياء هو من اسماء القرآن كما

فى اول سورة ص والقرآن ذى الذكر فذكر الله هو كلامه القديم والذكر الحكيم هو القرآن بعينه فاذن كذلك تعتبر انها اتبعت بما يشير الى الذكر والى القرآن · واما الثانية وهى سورة العنكبوت فانها وان كانت الم بل الحروف التى فى اولها ذكر · القرآن او الآيات البينات فانى ارى ان السر فى ذلك راجع الى كونها تحتوى على ذكر كل الكتب السماوية المنزلة على الرسل الى نبينا صلى الله عليه وسلم حيث يقول فيها الله تبارك وتعالى مخاطبا رسوله الكريم « وكذلك انزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يومنون به ومن هؤلاء من لا يومن به وما يجحد بآياتنا الا الكافرون وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لا رتاب المبطلون » · والتصريح بانه صلى الله عليه وسلم لا يعرف التلاوة ولا الكتابة زيادة فى التحدى لمشركى قريش خصوصا من يعرفون منهم الكتابة والقراءة بأن ياتوا بسورة من مثله فكأنه يقول لهم : انتم ترون ان هذا القرآن هو مركب من حروف ومن حروف ابجدية منقوطة وغير منقوطة وان الذى اوحى اليه لا يكتب ولا يخط بيمينه شيئا · فلا درجة فوق هذا فى التحدى ومع ذلك لم يستطيعوا ان ياتوا بسورة من مثله · وهكذا يكون الابتداء « بالم » كذلك من باب تعجيزهم.

فتبقى سورة الروم وحدها من بين هذه السور التسع والعشرين التى لم يرد فيها اشارة الى التنزيل · وهنا نحتاج الى تاويلات لنؤيد هذا النظر الذى ذهبنا اليه · فهناك ثلاثة وجوه الاول هو انه لما جعل هذه الحروف فى اول تسع وعشرين سورة خصص ثمانيا وعشرين منها للحروف التى تقابل الحروف الحقيقية مع الاشارة الى الكتاب او الآيات البينات او ما يفيد ذلك الوجه الثانى هو انه لما بدئت هذه السورة بحرفين هما الالف واللام وقد وردا فى اول ثلاث سور اخرى وهى البقرة والعنكبوت ولقمان لم يحتج الى تكرير هذه الاشارة ·

الوجه الثالث هو انه فى هذه السورة كما سنراه فى الكلام على اعجاز القرآن من حيث الاخبار بالمغيبات السابقة واللاحقة تحدى كذلك المشركين لانه سيخبر الله تبارك وتعالى فيها بغيب وهو ان الروم ستغلب فى حروبها مع الفرس بعد ان كانت مغلوبة · فكانه يقول لهم ايضا : اننى بهذا الكلام المتركب من حروف عادية اخبر ايضا بالمغيبات التى ستحقق بعد ذلك .

وخلاصة القول ان التحقيق النهائى حسب نظرى فى هذه الحروف هو انها تشير الى اعجاز القرآن وهى من باب التحدى لقريش · فالله تبارك وتعالى يقول لهم ان هذا القرآن مركب من حروف عددها تسعة وعشرون حرفا بعدد السور التى تبتدىء بهذه الحروف وان اربعة عشر منها مهملة وهى نصف عدد الحروف الحقيقية ·وكل هذه التدقيقات لم تكن معروفة اذ ذاك حتى عند العرب لانهم كانوا كما قلنا امة امية وكان شعراؤهم لا يعرفون عروض ولا قوافى وانما ينظمون الشعر سجية واعرابهم لكلامهم لم يكونوا يتلقونه عن اساتذة بل كان لهم ملكة جاء حتى العلماء بعد ذلك وحققوا حروفهم وقسموها الى شمسية وقمرية ومعجمة ومهملة ومع ذلك نرى فى القرآن الكريم هذا الترتيب العجيب وهذه التدقيقات التى شرحناها باختصار .

هذا وجه من اوجه الاعجاز فى القرآن الكريم وقد تصدى علماء الاسلام لشرح كل ما يتعلق بالاعجاز كالامام الباقلانى وعبد القاهر الجرجانى وغيرهما ولكنهم جميعا يهتمون بالناحية التى كان لها بلا شك اثر عميق فى نفوس العرب وجعلتهم يتيقنون ان مثل تلك البلاغة لا يمكن أن تصدر عن بشر مما دفعهم للايمان بالبعثة المحمدية · ولكن القرآن معجز من عدة نواح اخرى وهو كله معجز فهو معجز بالاخبار عن مغيبات سابقة ولاحقة · فأما السابقة فهى مثل قوله تعالى فى سورة يونس مخاطبا فرعون موسى : « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » هذه الآية الكريمة تشرح لنا انه لما سلم موسى عليه السلام وخرج مع بنى اسرائيل واتجه نحو فلسطين تابعه فرعون بجنوده فما كان الا أن غرق فرعون

وغرقت جنوده ولكن الله تبارك وتعالى يخبرنا ان جنده لم يضع وهذا بمعنى قوله تعالى : « فاليوم ننجيك ببدنك » قال السيوطى فى تفسير هذه الآية بجسدك الذى لا روح فيه . ومعنى ذلك ان الله تبارك وتعالى اراد ان يبقى هذا الجسد مصونا حتى يمثل للعيان كعبرة للمعتبرين وكمصداق لامانة تبليغ الرسالة الالهية التى انيطت بمحمد صلى الله عليه وسلم · وكيف يمكن ان تكون هذه الواقعة عبرة للمعتبرين ؟ ذلك ما حققته الاكتشافات الاثرية سنة 1881 عند ما وجدت مومية رمسيس هذا فرعون موسى · وهذا امر خارق للعادة . والا فكيف له ان يعلم ان جسد فرعون لم يذهب فى قعر البحر مع بقية الغارقين من جنوده وانه سيحنط وتكتشف موميته فى القرن التاسع عشر ؟ وهكذا تحققت النبوة ببقاء هذا البدن محفوظا حتى يراه الناس ليكون عبرة للمعتبرين وقد وقفت على هذا الجسد المحنط فى متحف الآثار المصرية القديمة بالقاهرة وتدكتب عليه انه فرعون موسى ، فاخذتنى عند مشاهدته قشعريرة وخشية امام هذه الآية الماثلة للعيان ولم ار من ربط هذا الاكتشاف بالآية الكريمة ·

ومن الاخبار للمغيبات اللاحقة قوله تعالى : فى اول سورة الروم : « الم غلبت الروم فى ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » اشارة الى الحرب التى كانت قائمة بين الفرس والدولة البيزنطية التى يسميها العرب (الروم) وقد وقعت هزيمة على جنود هرقل او هراقليوس كما يسميه الروم فى ادنى الارض اى فى فلسطين فى السنين الاولى بعد البعثة المحمدية اى سنة 614 وسنة 619 ثم اعاد الروم الكرة على كسرى وجنوده وانتصروا عليهم فى موقعة نينوى سنة 627 اى خمس سنوات قبل وفاته صلى الله عليه وسلم وتحققت هذه البشارة لان المسلمين كانوا يفضلون ان ينتصر اهل الكتاب من النصارى على المجوس لذلك قال الله تعالى بعد ذلك : « ويومئذ يفرح المومنون بنصر الله » .

ولكن فى القرآن مع كل هذا ناحية ابلغ فى الاعجاز وهو كله بليغ ومعجز وهو ما يحتوى عليه من اسرار الكون ودقائق علومه · وهى ناحية لم يبرزها علماء الاسلام بالكيفية التى تستحقها كما كان شانهم مع آيات الاحكام · وهذا امر ضرورى لا شك لان الاسلام جاء للهداية وللتشريع ولتنظيم حياة الامة الاسلامية ولكن للناحية العلمية البحتة حظ كبير من عناية القرآن الكريم وقد اشتغل العرب بهذه العلوم وقدموها ووصلوا فيها الى انتصارات عظيمة وكل واحد يعلم ان الدورة الدموية مثلا كان اول من اكتشفها وعرفها هو ابن النفيس وان الجبر والارقام العربية مما يرجع الفضل فى وضعها للعرب ولولا اكتشاف ما يسميه مؤرخوا الرياضيات بالمعجزة العربية ويعنون بها اكتشاف الصفر لما بلغ التقدم المادى والعلمى والتقنى الى هذه الدرجة التى يوجد عليها الآن لان اساس هذا التقدم هو العلوم الرياضية التى برز فيها العرب ، ولكن مع ذلك لم يتابعوا البحث حسب ما يامر به الله تبارك وتعالى فى كتابه المبين اذ ان الآيات الكونية فى القرآن تبلغ اكثر من سبعمائة آية كلها تتعلق بعلم الطبيعة وبالحيوان والفلك والاكوان كلها فى حين ان الآيات الصريحة المتعلقة بالاحكام هى نحو الخمسين ومائة وقد ابلغها ابو بكر بن العربى الى خمسمائة . وهكذا فان الآيات الكونية تحتل مقاما كبيرا فى القرآن الكريم مما يدل على ان الاسلام جاء لحث الناس على البحث والنظر واقتباس المعرفة وهنا يظهر السر فى كون اول ما نزل على النبى محمد صلى الله عليه وسلم هو هذه الآيات الكريمة : « اقرا باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » · ان محمدا صلى الله عليه وسلم بعث للقضاء على الشرك ومحاربة عبادة الاصنام التى لا تليق لكرامة الانسان الذى جعله الله خليفة فى الارض ولا يليق به ان يبنى بنفسه احجارا او يصنع بنفسه تماثيل ثم يصير يعبدها وينسب اليها الارادة والقدرة ، فالاسلام جاء للقضاء على هذه الضلالات ولاحلال الحق فى المكانة

التى يستحقها كما جاء لاقرار المساواة بين البشر ولتنظيم المجتمع الانسانى على طريقة تضمن للانسان السعادة فى الدنيا والفوز فى الآخرة وللامر بالتخلق بالاخلاق الفاضلة والكمالات الانسانية والاقبال على ما استكنه اسرار الكون واكتساب المعارف كلها وتعلمها وتعليمها ، ولكن الله تبارك وتعالى اختار أن يبتدأ من بين كل هذه المبادىء التى ارادت مشيئته ان يقوم رسوله الامين بتبليغها لعباده بمبدأ تعلم العلم بالقراءة والكتابة مؤذنا بأن الاسلام هو دين العلم .

بالعلم تكتسب كل تلك الفضائل فتوحيد المولى تعالى يجب أن يرتكز على اليقين الذى يؤدى اليه العلم وكل التنظيمات الاجتماعية والترتيبات الادارية والتقدم فى الميادين الحضارية كل ذلك لا يتاتى بدون علم . وقد جمع الله تعالى كل ما يتعلق بالعلم والتعليم فى هذه الآيات الثلاث .

لذلك كان الحث على طلب العلم من اوجب الواجبات فى الاسلام فالاحاديث الواردة فى ذلك كثيرة معروفة . ولا اريد ان اطيل عليكم بهذه الاحاديث .

ولكن نجتزىء منها باثنين وهما قوله صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) والتنصيص على المسلمة كما ورد فى احدى الروايات اشعار بأن المراة فى الاسلام شقيقة الرجل فى الحقوق والواجبات . والا فلفظة مسلم فى عمومها تشمل الذكر والانثى . وهذا ايضا شىء جاء به الاسلام ولم يكن له فى الديانات الاخرى ولا فى المدنيات السابقة ولا حتى فى الحضارة العصرية ما يماثله فالاسلام هو الذى اعطى المراة المقام الذى تستحقه اذ سواها بالرجل الا فيما كان يختص بها من حيث تكوينها الطبيعى . والحديث الثانى هو قوله صلى الله عليه وسلم : (اطلب العلم ولو بالصين) ومعنى ذلك انه يجب عليك أن تسمو الى اكتشاف العلم والمعرفة ولو تطلب ذلك منك مشاق السفر الى اقصى الارض . ويؤخذ من هذا الحديث ثلاث مسائل هامة اولاها أن على المسلم ان ياخذ العلم ولو عن الكفار والا لما قال صلى الله عليه وسلم ولو بالصين لان من المعلوم ان الاسلام لم يكن وصل اذ ذاك الى الصين . والمسالة الثانية هى ان العلم لا يراد به هنا علم الدين الاسلامى وانما المقصود به العلوم على اختلافهما من فلك وطب ورياضيات وتاريخ وفلسفة وقانون الى غير ذلك من العلوم . والمسالة الثالثة الحض على تعليم اللغات الاجنبية لانه لا يعقل ان يطلب العلم بالصين بدون معرفة لغة علمائها .

أما ما فى القرآن الكريم من تقدير للعلم وحث على طلبه وعلى تدبر ما فى الكون فذاك البحر الزاخر ويكفى ان نعلم ان عدد الكلمات المشتقة من مادة علم تفوق بعد كلمة الله والايمان به كل المواد اللغوية فقد عددتها فوجدت انها خمس وعشرون وسبعمائة مفردة فاذا اضفت اليها المفردات المشتقة من مادة كتب وهى خمس وثلاثمائة والمشتقة من مادة قرا وهما ملازمتان للعلم اذ لا علم بدون كتابة وقراءة يكون المجموع ست عشرة ومائتين والف مفردة وهذا لا يوجد فى كتاب دينى آخر زيادة على ما فى القرآن الكريم من حكم وقصص وتشريعات ولكنه يمتاز بالحث على طلب العلم وبتفضيل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون .

وهذا وحده كاف للتدليل على ان الاسلام دين العلم — وان مناقشة اهل العلم يتفق مع الدين مسالة مدسوسة على الاسلام فالدين هو العلم ، والعلم بكل ما تؤديه هذه اللفظة من معان وكيف يكون العلم منافيا لدين كان اول ما اوحى من كتابه.

« اقرا باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » .

« وما لم يعلم » شامل لكل ما يمكن ان يعلم. وكيف يكون العلم متنافيا مع دين يدعو كتابه من اوله الى آخره الى الاعتبار والى النظر ويعطى للعلماء ذلك المقام الذى نراه لهم فى القرآن الكريم . وهكذا فهم المسلمون آيات كتابهم المبين فكانت هى

الحافز الاول للعرب للوصول بالعلوم الى الدرجة السامية التى بلغوها امتثالا لتعاليم القرآن بعد أن اقتسموا العلوم من الامم السالفة وبحثوا عنها وترجموا كتب العلم من لغات امم غير اسلامية وطبقوا تلك المعلومات وزادوا فيها وعملوا على نشرها . واذا كان واضحا أن تبتدىء الرسالة المحمدية بهذا الامر الصارم فى الاقبال على استكناه اسرار الخلق فان المعجزة الكبرى ان يوجه هذا الخطاب لرجل امى يعيش وسط امة لا تكتب ولا تحسب ليجعل منها امة العلم التى لم يمر عليها الا يسير من الزمن بالنسبة لتاريخ تطور العلوم فى الامم السابقة حتى كدست مآت الآلاف من المؤلفات فى كل انواع المعرفة مما لو بقى كله وعد لفاق كل ما كتب فى المدنيات السابقة والحاضرة بما فى ذلك هذه المدنية العصرية وبكل اللغات . اذ طوال هذه الاربعة عشر قرنا والعرب يكتبون والمسلمون يكتبون وغير المسلمين ممن تثقفوا بالثقافة الاسلامية والعربية يكتبون . كل هنا من بركة .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » .

ومن المعجز كذلك أن هذا الامر بالاقبال على القراءة اقترن فى نفس الوقت بمنهج وهو ان الانسان يجب ان ينظر اولا الى نفسه وجسده ويرى كيف كون ومن اى شىء خلق ليتدرج بعد ذلك الى معرفة اسرار المخلوقات كلها مما تزخر به آيات القرآن ولو اردنا أن نتدبر كل الآيات الواردة فيه والمتعلقة بالعلم والمعرفة والتدبر فى ملكوت السماوات والارض وشرح كل ذلك بما وصل اليه العلم الى الآن لتطلب هذا العلم وضع المجلدات الضخام .

وهذه الآيات الكونية او جلها التى قدمنا انها تفوق سبعمائة آية ترد مقرونة بمثل قوله تعالى فى سورة الانعام : « قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » او بمثل قوله تعالى فى نفس السورة : « قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » .

او بمثل قوله تعالى فى سورة الرعد : « ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » او ما كان فى معنى ذلك وكل هذا تنبيه منه تبارك وتعالى لخلقه ليتفكرون فى ملكوت السموات والارض وليتفقهوا ليس فقط فى اوامره ونواهيه مما هو لا شك الغاية من الرسالة المحمدية وانما ايضا فى علوم الكون ليزدادوا ايمانا ويقينا فيتبعوا عن طواعية اوامره ويجتنبوا نواهيه . اذ النفوس مفطورة على حب الشهوات لما تجده فيها من لذة بدون الالتفات الى مضرتها فلا يمكن ان يصدها عنها الا الاقتناع التام المنبعث عن عقيدة راسخة وذلك الايمان الصحيح . فالمقصود من الاقبال على العلم هو فى نفس الوقت لما يترتب عليه من فوائد دنيوية ولما يؤدى اليه من التخلق بالاخلاق الفاضلة .

ثم ان امر الله تعالى خلقه بالتفكير فى اسرار الكون يدل على ان اساس الدعوة الاسلامية هو احلال الانسان فى المكانة اللائقة به كمخلوق وهبه الله تعالى العقل والتفكير من دون كافة مخلوقاته . فالجدير به أن يعرف اسرار الكون وان يبحث عنها ويتطلع الى معرفتها لتسمو مداركه وينتفع فى شؤون معاشه بالطيبات التى يسرها الخالق تعالى له وجعلها طوع يديه ان هو اقبل على تعلم وسائل استثمارها .

اما ما يتعلق بشرح الظروف وينبغى هنا ان نبين المناسبة لوصف الله تبارك وتعالى نفسه فى هذه الآيات الكريمة بالاكرم ومعناه المطلق الكرم سبحانه وتعالى والكرم الذى انعم به على عباده لا يعادله كرم . وذلك انه تولى فى كتابه تعليم البشر ما لم يكونوا يعلمون بما ضمنه من الآيات البينات فى شتى مناحى الحياة ومختلف العلوم وهل هناك كرم اعظم من ان يمن على الانسان بالعلم والتعليم والكتابة التى تنبثق عنها كل هذه المدنيات وهذه الاختراعات وهذه الاكتشافات وهى اكبر كرم تكرم به الله تبارك وتعالى على الانسانية : لذلك وصف نفسه هنا بأحد اسمائه الحسنى هو الاكرم اشارة

منه تعالى الى انه اكرم الجنس البشرى لانه أعطاه العقل واعطاه العلم ويسر له المخلوقات بما يصل اليه من اكتشافات . وتخصيصه فى هذه الآيات الاولى المنزلة على رسوله الامين ذكر خلقه سبحانه الانسان من علق تنبيه الى وجوب تدبر اسرار الخلق كلها مما فصله سبحانه فى محكم كتابه لمن يعلمون ويتفقهون هذه الآيات الكريمة · وذلك كما قدمنا ما حدا بعلمائنا الاولين الى الاقبال على اكتناه المجهول فى شتى مناحى المعرفة مستندين الى المبادىء العلمية التى تضمنها القرآن الكريم والتى لا نجد لها مثلا فى الكتب السماوية الاخرى ويتعين على علمائنا اليوم المختصين فى العلوم البحتة من طبيعيات وكيمياء الى غير ذلك أن يتدبروا هذه الآيات ويخرجوا منها ما لا يستطيع غيرهم أن يعرفه لان فى القرآن الكريم من هذه الاسرار ما نص عليه ونومن به ولكن لا يستطيع كل واحد ان يتفهم مغزاه وان يدخل فى عمق اسراره، ولا يمكن ذلك الا للعلماء الاخصائيين وقد وقعت محاولات فى هذا الباب من بعض العلماء ولكننى اهيب بكل العلماء المسلمين فى كافة الاقطار الاسلامية ان يهتموا بهذه الناحية ويدرسوا اسرار الكون فى القرآن ويطبقوها على ما يعرفه العلم الآن · ثم ان الحكمة الالهية اقتضت أن الانسان بما وصل اليه من نمو فى فكره وعقله يجب عليه ان ينحى اتجاها جديدا فى الحياة وان يقبل على ترقية مداركه · فحثه المولى تعالى اولا على استعمال عقله فى تفهم كل الظواهر الطبيعية والقوانين الكونية ليكون ايمانه بالخالق جلت قدرته ايمانا مبنيا على اليقين الذى ينتج عنه الاطمئنان · فانه اذ يخاطب عقولهم · واذا قرر مثلا فى سورة البقرة وحدانيته بقوله جل من قائل : « والهكم الاه واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم » يردف هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيى به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخرين بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » · ويندد فى آيات كثيرة بالذين يومنون تقليدا ويتبعون مما وجدوا عليه آباءهم ولو كان هؤلاء لم يستعملوا عقولهم ليتبينوا ما كانوا عليه من الخلال فيقول تعالى فى سورة البقرة كذلك : « واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما القينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ·

وهذه المكانة التى اعطاها القرآن الكريم للعقل هى التى فتحت امام المسلمين طرائق البحث وجعلتهم يكتشفون من اسرار العلوم فى الفلك والرياضيات والطبيعيات وعلم النفس والطب وكل العلوم ما تزخر به مؤلفاتهم التى بلغت عددا لم تبلغه مدنية قبلهم ولا بعدهم · اذ من المقرر ان الكتب التى وضعها المسلمون والمثقفون بثقافتهم وبلغة القرآن فى هذه القرون الاربعة عشر لو بقيت كلها وقورنت بما وضع فى المدنية المعاصرة لفاقت مجموع ما الف فيها على كثرته وبسائر اللغات كما قلت سابقا ·

ومن الامر بالنظر والتفكير ينتقل القرآن الكريم بالمومنين الى الحث على اكتساب العلم وذلك بتقرير مقامه السامى اذ يقول سبحانه فى سورة الزمر : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » واذ يقول جل من قائل مبينا مقام العلماء من خشيته تبارك وتعالى وذلك فى سورة فاطر : « الم تر ان الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء » اى العلماء الذين يتدبرون هذه الظواهر الطبيعية وهذه المخلوقات التى احسن صنعها الخالق سبحانه وتعالى وهذا اكبر دليل على ان العلم المقصود به قبل كل شيء فى القرآن هو علم الكون وهو علم هذه الاشياء التى ذكرها الله تبارك وتعالى واردفها بقوله : « انما يخشى الله من عباده العلماء » وعند ما نسمع هذه الآية تنصرف افكارنا دائما الى

الذين يعلمون الشرائع والفقه وهم محترمون وهم ضروريون وهم الذين حافظوا لنا على ديننا وحافظوا لنا على ثقافتنا وعلى لغتنا · ولكن ينبغى أن نتفهم كلام الله كما نزل فهو عند ما يذكر سبحانه العلماء يقصد بهم كل من يعلم علما سواء كان من علوم الشريعة أو من العلوم الطبيعية من احياء وهيئة وفلك وطب وانواء وغيرها من العلوم التى فصلها الله تبارك وتعالى فى هذه الآية وفى غيرها من آيات الذكر الحكيم · ثم ان من تقدير القرآن للعلم وللعلماء ما يذكره سبحانه وتعالى من فضله على بنى آدم اذ بعث سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم برسالة تعليم البشر ما لم يكونوا يعلمون فيقول فى سورة البقرة : « كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » ·

ويتولى الخالق تعالى تشريفا للنوع البشرى تعليمه بواسطة رسوله الامين وكتابه المبين فيقول فى سورة البقرة كذلك : « ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم » فهذا تكريم عظيم للنوع البشرى كون الله تبارك وتعالى الخالق البارى هو الذى تولى تعليم البشر وارشادهم ·

ثم انه من البديهى أن الله تبارك وتعالى لم يقصد أن يجعل من الكتاب الذى اوحاه الى رسوله لهداية البشر كتاب تعليم للعلوم الكونية بتفصيل المسائل وتبويبها وذكر جزئيات العلوم وانما وضع مبادىء وتعاليم أوجب على المسلمين السير على هداها ليبلغوا ما اراده لهم من استكمال انسانيتهم وتحقيق كرامتهم · واعطى امثلة من الحقائق العلمية منها ما توصل العلماء المسلمون الى تفهمها وشرحها وبيان جزئياتها ومنها ما لم يتضح الا بعد تقدم العلوم الكونية فى هذه العصور·

ويطول بنا الحديث لو اردنا ان نتتبع هذه الآيات الكونية ونورد ما يقول فيها العلم الحديث كالآيات العديدة المتعلقة بعلم الفلك مثل قوله تعالى فى سورة يسن : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » وكتقرير ان الحياة تقترن بالماء ومنه أصلها كما قال تعالى فى سورة الانبياء : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » ولبيان تكوين الجنين الى أن يخرج بشرا سويا مثل قوله تعالى فى سورة المومنون : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين » ·

وهذا التدرج فى تكون الجنين من أول عملية الاخصاب الى أن يصير خلقا آخر اى ذا عقل واحساس بعد تكونه المادى هو وصف دقيق يتفق تماما مع ما توصل اليه علم الاجنة وعلم التشريح· ولو تتبعنا ذلك من الناحية العلمية التى لا يعرفها الا المختصون لراينا أن ذلك هو ما يسير عليه التكون بالضبط منذ أن تلتقى نطفة الذكر ببيضة الانثى مما لم يكن معروفا مطلقا عند العرب قبل الاسلام ولا عند الامم التى سبقتهم الى العلم والمعرفة بل لم يتوصل حتى علماء الاسلام الى هذا التدقيق مع انه كان لهم من كلام الله ما يرشدهم اليه · ولكن هذه سنة الله فى جعل اعمال البشر تسير بالتدرج فى المعرفة والبحث فجعلت هذا الفضل يدخر لعلماء هذا العصر ·

وكم فى القرآن الكريم من عجائب من هذا النوع لا تزال مغلقة علينا وتحتاج الى من يتصدى لها لمحاولة استكناه حقائقها بل ارى ان لو عمد علماء الطبيعيات والفلك وغيرهما من العلوم الكونية الى الآيات التى تتعرض لهذه الظواهر وهى كما قدمنا تفوق السبعمائة آية وجعلوها اساسا لدراسات جديدة اتخذوها كفروض بحث معتمدين على ما تم تحقيقه فى العلم الحديث لتوصلوا الى ما يبهر العقول ويزيد فى تقدم المعرفة عوض ان ينتظروا أن يقرر العلم مثلا ان الجنين يتكون بكذا وكذا فيقولون هذا ما نراه فى القرآن فيجب ان يتيقنوا ان

كل ما ورد فى القرآن الكريم حق ولو لم تبلغه مداركنا ·

ومن عجائب ما ايده العلم فى تكوين الجنين ان الخصيتين فى مبدا تكونهما وكذلك المبيضان بالنسبة للانثى تكون فى ظهر الجنين عند اسفل الكليتين بالضبط وتبقى تحتهما حتى الشهور الاخيرة من حياة الجنين فى بطن امه ثم تنحدر الى الاسفل على ما حققه علم الاجنة · فاذا عرفنا هذا ورجعنا الى قوله تعالى فى سورة الاعراف : « واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم » تبين لنا معنى اخذ الذرية من الظهور حيث ان المقر الاول لمواد النسل الاساسية يكون فى ظهر الجنين · هذه ايضا من معجزات القرآن ·

ومن هذه الآيات البينات التى شرح العلم الحديث مغزاها قوله تعالى فى سورة البقرة : « والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا يتربصن بأنفسهن اربعة اشهر وعشرا » · فقد اظهر علم الاجنة انه لا يمكن سمع قلب الجنين ينبض فى بطن امه الا بعد وصوله هذه المدة المقررة فى هذه الآية المعجزة · وكلام الله كله معجز سبحانه وتعالى ·

ومن القضايا المعجزة فى القرآن وكله معجز قوله تعالى فى سورة الانعام : « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام · ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء » فتشبيه الضيق والحرج بالحالة التى تصيب من يصعد فى السماء لا يمكن ان يدرك تمام الادراك الا فى وقتنا هذا حيث نعلم ان من يركبون الطائرات يضيق صدرهم حتى يحتاجوا احيانا الى استنشاق الاكسجين للتفريج عنهم ولم يجرب احد فى ايام النبى صلى الله عليه وسلم الصعود الى السماء فسبحان الله العليم بكل شىء ·

ومن المنجزات الباهرة التى توصل اليها العلم والتقنيات فى هذا العصر الوصول الى القمر مما ادهش العالم واعتبره الجهال كأمر لم يكن فى حسبان الديانات وربما يخالفها والحالة ان المتدبر للقرآن الكريم يجد فى سورة الرحمن قوله تعالى : « يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السماوات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان » وهذه الآية الكريمة تقرر اولا انه لا يستحيل على الانسان ان ينفذ من اقطار الارض اى : الى السماء ومن اقطار السماء الى الارض · انما شرط ذلك بالاستطاعة وجعل ثانيا هذه الاستطاعة مقترنة بالسلطان اى بالمقدرة العلمية ·

وهكذا يصير امر الوصول الى القمر والى الذرارى كلها امرا ميسورا بفضل ما من الله به على الانسان من فضيلة العقل الذى يكتشف به عن مكنونات الحقائق العلمية مما حث الاسلام عليه وارشد القرآن الكريم الى طرقه ·

ومن الشبهات التى يوجهها اعداء الاسلام للقرآن قولهم : نجد فى القرآن آخر سورة لقمان هذه الآية : « ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى ارض تموت . ان الله عليم خبير » ويعلقون عليها بقولهم ان العلم توصل الآن الى استطاعة تنزيل المطر من السحب كما استطاع بتحليلات بول الحامل أن يعرف ما فى بطن الحامل ذكر ام انثى والجواب على هذا عند من يستندون على حديث ام المومنين مولاتنا عائشة رضى الله عنها جاء فيه ان الله تبارك وتعالى استأثر بمعرفة هذه الاشياء الخمسة فانهم يقولون ان معرفة العلماء ان صحت لما فى بطن الحامل فانه علم ناقص لان العلم الذى استأثر به المولى تعالى فهو العلم بدقائق تكون الجنين وشكله ولونه وكل صفاته الخلقية وما يكون عليه من الصفات الخلقية · واما الغيث الذى ورد فى القرآن الكريم فليس هو مجرد مطر ضئيل يفجر من السحب بتسليط مواد كيماوية عليها وانما المقصود اغاثة البشر حسب ارادته تعالى بكيفية شاملة ينتج عنها الخير والنماء ·

وهذا الجواب ان اقتنع به المسلمون المومنون فانه لا يمكن ان يقنع المعاندين لذلك ابلغ لكم جوابا لامير المومنين جلالة ملك المغرب الحسن الثانى نصره الله وهو كما يعرفه الكثير منكم من العلماء الراسخين المتدبرين للقرآن الكريم وهو فى كل مجالسة يتعرض لقضايا من هذا النوع ويسلط عليها مع ايمانه الراسخ نبوغه الفطرى وعلمه الواسع فى شتى مناحى المعرفة وهكذا جرى ذكر هذه المسألة فى احد مجالسه فى ليالى رمضان الماضى فقال : ان الله تبارك وتعالى استعمل اربع عبارات مختلفة بالنسبة لهذه المسائل الخمس · فقوله تعالى « ان الله عنده علم الساعة » يشعر بأنه استأثر بهذا العلم فقال عنده ولم يقل يعلم وقوله تعالى : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت » نفى بات لامكان معرفة الانسان لذلك ، وهذان الامران ايضا مما استأثر بعلمها سبحانه وتعالى · اما تنزيل الغيث فلم يستعمل فيه عبارة تدل على أن الانسان لا يستطيع بما وهبه الله من عقل وعلم ان يفجر السحب لتغيث الناس بمطرها · وكذلك لم يقل عنده علم ما فى الارحام وانما قال يعلم ولم يحرم على عباده ان يسموا الى علم ذلك ، بل كل ما فى القرآن كما قلنا مرارا يحض على طلب العلم واستكناه المجهول والنظر فى مظاهر الكون لمعرفة اسرارها · وقد اعجبنى جدا هذا التاويل · واستأذنت صاحب الجلالة أيده الله فى روايته عنه فى هذا الحديث الذى كنت انوى القاءه عليكم فاذن زاده الله تبصرا فى كلامه القديم ومعرفة لدقائق اسراره ·

ومن اروع الامثلة على هذه الحقائق العلمية التى وردت فى القرآن الحكيم والتى بقيت مغلقة لا تدركها العقول لان مدارك الانسان لم تكن بلغت بعلمها الى تفهمها لبعدها عن المعتاد البشرى فجاء العلم الحديث يؤيدها ويقررها قوله تعالى فى سورة الحج : « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده · وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » فذهب المفسرون الى ان هذا الطول انما هو بالنسبة لعذاب الآخرة فيظهر للمعذبين عذاب يوم كأنه الف سنة وحتى المفسرون المعاصرون لا يزيدون على هذا فترى مثلا فى الجزء السابع عشر من تفسير القرآن الكريم لثلة من العلماء انهم يقولون : (وان يوما واحدا من أيام الآخرة التى يكون فيها الامر لله لشدته وهو له أيها الكفار ليرى كألف سنة مما تعدون فى الدنيا لان ايام الشدائد يستطيل الانسان منها كل ثانية) (ص 95) ·

ومن البديهى انه لم يكن فى مقدور المفسرين القدماء منهم ولا المحدثين ان يعرفوا نظرية النسبة قبل اكتشافها ولا تطبيقها فى التنقلات بواسطة الصواريخ عبر الفضاء · وذلك انه من المقرر علميا الآن أن الحركة توثر فى الزمن كما بينه منذ بضع سنين الاستاذ ارزيليبس وهو من اساتذة كلية العلوم بجامعة محمد الخامس بالرباط ومن اساطين علماء الفيزياء خصوصا فيما يتعلق بنظرية النسبة ولتآليفه شهرة عالمية وقد ترجمت الى عدة لغات وما التقيت بعالم من علماء هذا الشأن فى الجامعات التى زرتها الا ويسألنى عنه وعن آخر ما انجز من الابحاث ·

قال هذا الاستاذ فى درسه الافتتاحى للسنة الجامعية عام 60 — 61 ان نظرية الزمن التى تقتضى انه لا يتغير لم تعد مقبولة منذ ان اصبح علماء الفيزياء متجهين اتجاها جديدا بعد أن وضع الفيزيائى العظيم اينشتابن نظريات نسبية للفيزياء وصارت فكرة الزمن موضوع دراساتهم وتوصلوا الى نتائج مدهشة · واول خاصة غريبة اكتشفوها هى تلك التى اطلقوا عليها لفظ « تمهل الزمن » واليكم وصف هذه الظاهرة : لنفرض مجموعة من ساعات دقاقة ولنضعها على الارض مستقرة لا تتحرك ولنعمد الى ساعة تتحرك بسرعة خاصة وهى تشير قبل ابتداء حركتها الى نفس الوقت الذى تشير اليه الساعات المستقرة . فاننا نلاحظ أن الساعة المتحركة عند ما تمر امام احدى

الساعات المستقرة تشير الى زمن متاخر عن زمننا فاذن سبب هذا التأخر هو الحركة وهو ينمو حسب السرعة . وعلق الاستاذ على هذه الحقيقة بتقرير ما يلى : انه ان قدر لمسافر فى سفينة فضائية تسير بسرعة معينة ان يغادر الارض وهو ابن ثلاثين سنة مثلا وترك فى الارض زوجا لها نفس عمره ثم رجع بعد عام من حسابه يجد أن زوجته صارت عجوزا فى الغابرين مع انه لا يزال شابا واردف هذا التقرير بنكتة حيث قال : لهذا كان التشريع الذى يفرض على المراة ان تصاحب زوجها فى اسفاره تشريعا معقـــولا .

ومن جملة ما ورد فى هذا الدرس الممتع ان هذه الاشياء ليست من قبل الخيال فى شىء وليس من عادة العلماء الفيزيائيين ان يطلقـــوا العنـــان لخيالهم وانما هم لا يقولون الا ما تؤكده التجربة والواقع . بل نستطيع الآن كما يقول علماء النسبية أن نحسب المعادلات بين الزمن كما هو مع السرعة التى تعد بارقام فلكية ، وبين الزمن الذى ينقضى فى نفس الوقت على الارض وهذه هى المعادلات بالنسبة لسرعة معينة : فاذا قطع المسافر عبـــر الفضاء ثلاث سنوات تمر فى الارض عشر واذا قطع ستا تقابلها مائتان ، واذا قطع عشرا تقابلها احد عشر الف سنة وخمس عشرة سنة فى الفضاء يقابلها فى الارض مليونان من السنوات . وهـــذا بالحساب العلمى لا بالخيال .

وهكذا يأتى العلم بعد اربعة عشر قرنا من نزول القرآن المبين ويشرح أن السنين التى نعدها فى الارض لا تعد فى ملكوت الله سبحانه الا بالدقائق والثـــوانـــى .

ومن تمعن فى الآية الكريمة ير ان قولـــه تعالى : « وان يوما عند ربك كالف سنـــة ممـــا تعدون » لا يترتب على العذاب كما فهمه المفسرون الاولون وانما على الاستعجال لان الاستعجـــال يقابل الزمن وهم ذهبوا جميعا الى تفسير طول اليوم بالعذاب الشديد ولكن سياق كلامه تبـــارك وتعالى يقتضى انه يجيبهم لا عن العذاب ولكن عن الاستعجال فكأنه سبحانه يقول لهم : مهلا عليكم فان لى الزمن كله : وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون فان هذا العذاب سيحل بهم ولو طال الزمن فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه تـــرجعـــون .

ونستخلص من هذه الملاحظات حول مقام العلم والعقل فى الاسلام انه ينبغى فى هذا العصر الذى عمت فيه بلبلة العقـــول من جـــراء هـــذه الانقلابات والتطورات فى الحياة الاجتماعية المترتبة على ما حققه التطبيق العلمى للاكتشافات العلمية مع ما يتبع ذلك من ظهور آراء جديدة ونظريات غريبة تستولى بالخصوص على الشباب الذى يتطلع الى مستقبله بعين كلها حيرة وتساؤل ينبغى امام هذه التيارات أن يكون توجيه شبابنا منطلقا مـــن هذه الناحية الاعجازية فى القرآن . وينبغى اذن لنصد الشبان عن هذه التيارات ان نـــرسم لهم الطريق من هذه الناحية وهى تقرير ان الاسلام هو دين العبادة ودين الاستقامة ودين الاخـــلاق الفاضلة ، ولكنه ايضا دين العلم ، يجب ان نخاطبهم بما يعلمون وبما يرون عند غيرهم . فاذا قلنا لهم أنتم ترون ان هذه الاشياء التى توصل اليها غيرنا من عندنا ولما كنا سادة الدنيا وكنا نعمل بكتابنا وكنا نتتبع آياته كنا بلغنا درجة لم يبلغ احد سوانا مثلها وقد من علينا الله بالبقاء لان الامم الاخرى التى اصابها مثل ما اصابنا من تخلف وانحطاط اداها الى الزوال فى حين لـــم يصب الحضـــارة الاسلامية الا خمود طال لا شك مدة طويلة ولكن اعقبته يقظة شاملة بفضل رجال قيضهم الله لاحياء هذا الدين الحنيف ومن هؤلاء الرجال جماعـــة اخواننا المشرفين على هذه الادارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وفازغستان فالمولى تعالى المسؤول ان يعينهم ويوفقهم الى تأدية هذه الرسالة السامية على احسن وجه والسلام عليكم ورحمة الله .